القرآن كتاب الله

القرآن حجة النبي ﷺ على صدق رسالته ، فإنه ما أرسل الله رسولاً إلا وأعطاه آية تشهد على أنه رسول الله حقاً ، وتمهد لإيمان قومه بما جاء به ، وتكون اختباراً تميز الخبيث من الطيب : ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ [القمر : ٢٧] .

فموسى – عليه السلام – أُعطى العصا التي أبطلت سحر الساحرين ، وعيسى – عليه السلام – كان يبرئ الأكمه ، والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ونبينا محمد ﷺ أُعطى آية باقية خالدة تحدى بها العرب وهم أهل الفصاحة واللسن – وطالبهم أن يأتوا في معارضتها بما ينهض في إبطالها ، فعجزوا .

ولا قدر للآية من آيات الرسل حتى يثبت أنها من السماء ، وحتى تجيء بما لم يستطع البشر أن يجيئوا به ، فلا جرم كان على المؤمنين بالقرآن أن يقيموا البراهين على أن هذا الكتاب نزل من السماء ، وعلى أن العرب عجزوا عن معارضته وعجز – كذلك – من بعدهم عن هذه المعارضة ، و سيظلوا عاجزين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فهنا قضيتان : القرآن من عند الله . القرآن أعجز العرب عن معارضته . وسنأخذ في تفصيل القول في كل من هاتين القضيتين .

القرآن نزل من السماء :

لقد ثبت أن القرآن الكريم وصل إلينا بالتواتر ، وجاءنا كما أنزل ، لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف ، ولم يطرأ عليه نقص ولا زيادة ، ومن هنا تكون الصورة التي نرسمها لهذه القضية – من ثنايا الآيات القرآنية صورة صادقة وواضحة .

محمد – عليه الصلاة والسلام – بلغ قومه أن الله كلفه بأن يدعو قومه إلى دين جديد ، وأنه أنزل إليه كتاباً يشهد بصدق هذا التكليف : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ

ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٥] ، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف : ١١٠] ، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت : ٦] ، ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس : ١٥] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تفيد كلها أن هذا القرآن وحْيٌ من عند الله ، وأن مهمة الرسول إنما هي التبليغ .

والمشركون – كما تحدث القرآن أيضاً – أنكروا هذه الدعوى ، وأصروا على إنكارها ، فاتهموا الرسول – أولاً – في عقله ، فقالوا : إن به جنة ، واتهموه في أخلاقه ، فقالوا : إنه افترى هذا القرآن ، واتهموه في تقديره للأمور فقالوا : إن ما جاء به ما هو إلا أضغاث أحلام ، واتهموه في سلوكه ، فقالوا : إنه ساحر ، وإنه كاهن ، وإنه شاعر .

﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ [المؤمنون : ٦٩-٧٠] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ [سبأ : ٧-٨] ، ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ [الصافات : ١٥٨] ، ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر : ٦] ، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ [الصافات : ٣٥-٣٦] ، ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم : ٥١] ، ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ [الدخان : ١٣-١٤] ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان : ٤-٥] ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل : ٢٤] .

هكذا صور القرآن الكريم دعوى النبي الرسالة ، وإنكار قومه هذه الدعوى .

وقد أبطل القرآن ما وصف به المشركون محمداً ﷺ ، فنفي عنه الجنون ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم : ٢] ونفي أن يكون القرآن شعراً أو كهانة : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة : ٣٨-٤٣] .

وواضح من تاريخ نزول هذه الآية أن اتهامهم النبي في عقله كان في الأيام الأولى للدعوة ، ذلك أن سورة القلم كانت الثانية في النزول بعد سورة العلق ، وكذلك وصف القرآن بأنه سحر ، فقد جاء ذلك في سورة المدثر وهى الرابعة في النزول .

ثم إن القرآن أكد في كثير من الآيات أن الله – سبحانه – هو الذي أنزل القرآن على رسوله محمد ، وأن محمداً لم يكن يستطيع أن يأتي بهذا القرآن ، ولا أن يزيد فيه حرفاً واحداً : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر : ٩] ، كذا بصيغة الحصر ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى : ١٧].

وقد كان كل هذا كافياً لأن يطرح أصحاب الشكوك شكوكهم ، وأن يخرس أولئك الذين يدعون أن القرآن من عند محمد ، ألفه ، أو أملى عليه ، فإن هذا القرآن وصل إلينا كما تصل أوثق وثيقة تاريخية ، وأنها بقيت عبر الأجيال محوطة بعناية أهلها محفوظة بحفظ الله من كل ما يعترى وثائق التاريخ من تحريف أو تبديل .

كان ذلك كافياً ، ولكن الذين أضلهم الله على علم لا يزالون كما كان أسلافهم من مشركي مكة يحاولون أن ينالوا من القرآن فيدعون أنه ليس من عند الله ، وأنه أثر من آثار محمد بن عبد الله ، ولذلك كان علينا أن نسوق البراهين على أن محمداً أو أي بشر آخر لم يكن ليستطيع أن ينشئ هذا القرآن ، ولا أن يأتي بأقصر سورة من سوره ، وكما أن البشر عاجزون عن أن يخلقوا حشرة صغيرة ، أو يصلوا عضواً بإنسان أو حيوان أو طير تجرى فيه دماء الحياة ، كذلك هم عاجزون – كما عجز أسلافهم – أن يأتوا بشيء من هذا القرآن ، لأنه لا قوة للبشر تمكنهم أن يضاهئوا ما خلق الله أو أن يعارضوا كلامه .

وقد أوضح العلماء كثيراً من البراهين التي تثبت – بما لا يدع مجالاً للشك – أن القرآن ليس من صنع محمد ، ولا من منقوله عن غيره [1] ، وسنكتفي هنا ببعض هذه الأدلة :

١ – أشار القرآن إلى دليل من هذه الأدلة ، ذلك أن أي أثر أدبي إذا طال لا يمكن أن يكون على مستوى واحد من البلاغة والفصاحة وأن أي أديب أو بليغ أو حكيم لا يأمن أن يناقض نفسه في آثاره لا سيما إذا كانت كثيرة ، وقد كتبها في أزمنة متباعدة ، والأمثلة على ذلك كثيرة نجدها تقريباً في كلام كل صاحب رأى ، كما لا يكون كلامه على مستوى واحد في مختلف المعاني .

أما القرآن الكريم فمع أنه نزل في ثلاث وعشرين سنة ، ومع أنه بلغ هذا القدر الذي نعرفه ، فقد خلا من الاختلاف ، فكان في أسلوبه على أعلى درجة من البلاغة ، وكان في أحكامه وتشريعاته منسقاً . لا تناقض فيه ، ولا اختلاف .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

٢ – كان مما لجأ إليه المشركون للنيل من محمد ورسالته ، والكتاب الذي أنزل عليه أن زعموا أن محمداً كان يجلس إلى رجل من أهل مكة ، وهو الذي علمه القرآن.

وقد أبطل القرآن هذه التهمة في يسر وقوة وإلزام : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣].

روى أن النبي ﷺ كان كثيراً ما يجلس إلى غلام رومي نصراني ، وكان يقرأ الكتب ، وروى أنه كان بمكة عبدان يصنعان السيوف ، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل ، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن فيستمع منهما ، قيل : وكان

---

١ – انظر مثلاً ــ في هذه القضية كتاب (النبأ العظيم) للمرحوم الدكتور / محمد عبدالله دراز .

رسول الله إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيتروح بكلاهما ، فقال المشركون : إنما يتعلم محمد منهما .

وقد حسم القرآن هذه القضية ، وحج أهل مكة بما يعرفونه حق المعرفة وهو أن هذا الذي يشيرون إليه ، ويدعون أنه علم محمداً إنما هو رجل لا يفصح عما في نفسه فكيف يستطيع أن يلقن محمداً هذا القرآن العربي المبين .

وإذا كان هذا الرجل يقرأ التوراة والإنجيل ، أو يقرأ شيئاً من الكتب الأخرى السابقة فقد تحدد المصدر الذي أشار إليه كفار مكة ، فهل يمكن أن يكون القرآن الكريم وهو الغاية في الفصاحة والبلاغة أثراً من آثار التوراة أو الإنجيل ، وهما لم ينزلا للتحدي بفصاحتهما ، كما هو معروف من تاريخ الأديان ؟ وأين في الكتابين أو في غيرهما هذه التشريعات والوصايا ، وذكر الحوادث التي وقعت في عصر النبي ﷺ وسجلها القرآن ؟

ومن المسلم به تاريخياً أن مكة في عهد الرسول ﷺ لم تكن بيئة علمية ، وأنه لم يعرف في تاريخ الرسول أنه جلس إلى معلم على الطريقة التي يمكن بها أن يكون عنده من العلم ما ينشئ به شريعة جديدة بكل ما فيها من مبادئ ونظم وأحكام .

٣- وثالثة أشار إليها القرآن الكريم أيضاً في رده على المشركين الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين ، ذلك قوله تعالى : ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ففي هذا المعنى إشارة إلى أن في القرآن أسراراً وخفايا لا يمكن أن يعرفها رجل أمي نشأ في بيئة أمية . أخبر القرآن عن كثير من الحوادث الماضية التي كان يعلمها بعض الأحبار والرهبان ويكتمونها فجاء إخبار القرآن عنها كما وقعت في الماضي ، وأخبر القرآن عن أحداث أخرى ستقع ، وقد وقعت كما أخبر القرآن.

وتحدث القرآن عن كثير من أنواع المخلوقات في الأرض وفي السموات ، وعن الخلق ، والتكوين ، ووصف الكائنات بأنواعها كالكواكب وبروجها ونظامها ،

والرياح والبحار والنبات والحيوان والجماد ، وما فيها من الحكم والآيات [1] ، وكل ذلك مما لا يستطيع أن يخبر به أي عالم مهما بلغ علمه فضلاً عن رجل لم يكن يقرأ ولا يكتب .

٤ – ولعل مما يدخل في مضمون هذه الآية أن القرآن الكريم جاء في كثير من آياته بما يتفق مع أخفى خفايا النفس البشرية ، فكل تعاليمه تتمشى مع الفطرة السليمة ، وكل ما فيه من الحكم والوصايا والأحكام يتفق مع سياسة النفس سياسة سليمة حكيمة .

ولقد جهد علماء النفس أن يستخرجوا من القرآن الكريم كثيراً من النظريات النفسية التي يفخر بعض العلماء المحدثين بأنهم استنبطوها بتأملاتهم وتجاربهم .

وإنه لمن المؤكد أن بشراً كمحمد – عليه الصلاة والسلام – نشأ في بيئة لم تُعرف بعلم ولا فلسفة ، ولا تأمل واع في ميول النفوس وغرائزها ونزعاتها لم يكن ليستطيع أن يهتدي إلى هذه الدقائق في النفس الإنسانية فيستعين بها على تربية أجيال متتابعة من الأمة الإسلامية ويكشف – قبل أن يعرف علم النفس – عن أهم المبادئ التي تقوم عليها التربية الصحيحة ، والتعاليم النافعة ، والقوانين التي تهذب الأخلاق ، وتوجه سلوك الإنسان إلى وجهته الصحيحة [2] .

٥ – وبرهان خامس لا يقل أهمية عن البراهين السابقة :

ذلك أن نقاد الأدب أجمعوا على أن الأديب الحق المطبوع هو من يكون أدبه صورة صادقة لنفسه ، وكل شاعر – مثلاً – لا نعرفه من شعره فهو شاعر مزيف .

ومن المعروف أنك تستطيع أن تستخرج حياة أي شاعر من الشعراء المطبوعين بآلامها وأفراحها ، وأشواقها واعتقاداتها ، وجلائل أمورها وصغائرها من شعره.

---

١ – انظر تفسير المنار ، جـ٥ ، ص ٢٨٧ وما بعدها .
٢ – انظر كتاب (القرآن والطبائع النفسية) للمؤلف .

ولكل أديب خصائص وسمات لا يخطئها النظر الناقد في كل ما ألف وكتب ، في البارع من أدبه ، وفي الرديء منه ، ذلك أن الأديب يصدر عن دخائل نفسه ، ويطبع أدبه بطابعه الخاص الذي لا تتلمسه من خارج النفس ، وإنما نبحث عنه في أطوائها ، وأغوارها البعيدة .

وتمشياً مع هذه القاعدة ، وهي صادقة ، لو ذهبنا نقارن بين ما عرفناه من حياة الرسول ﷺ وما تلوناه في القرآن الكريم ، لا نجد في القرآن صورة هذه الحياة، فلا ترى فيه أفراح الرسول وآلامه ، ولا نرى فيه هماً من همومه النفسية غير ما يكون على جهة الإخبار ، ولكن ليس هذا هو الذي نريده ، نحن نريد أن نقرأ آيات القرآن – لو كان من عند محمد – فنرى فيه مزاجه الخاص ، وعواطفه الذاتية.

مثلاً : حدثت حادثة الإفك التي اتهمت فيها أحب أزواج النبي إليه ، وقد عاني الرسول وآله من ذلك ما عانى ، ولكننا لا نجد في الآيات التي نزلت في تبرئة عائشة أي أثر من آثار هذه المعاناة في نفس الرسول ﷺ .

ومثلاً مات عمه أبو طالب ، وماتت زوجه خديجة ، وكانا من أحب الناس إليه ، وسمى العام الذي ماتا فيه (عام الحزن) ولكننا لا نجد أي أثر لذلك الحزن العميق فيما نزل من قرآن في هذه الفترة .

ولو كان القرآن من عند محمد لكانت تبدو فيه – على الأقل – سحائب من هذه النفس الحزينة .

أما حين يقول القرآن مخاطباً للرسول ﷺ ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1] [الشعراء : ٣] فيخبر عن مدى الضيق الذي يعانيه الرسول من إعراض قومه ، أو يقول: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : ٢٧] ، أو يسجل قصة وقعت للرسول مع قومه أو مع زوجاته فإننا لا نعد ذلك دالاً على أن الرسول أظهر أسرار نفسه في هذا الأثر الإلهي ، لأن ذلك كما وصفناه جاء على سبيل الإخبار .

١- باخع : مهلك .

ونحن لا نعرف شيئاً كثيراً عن نفسية الشاعر حين يقول : إنني فرح أو حزين ، ولكننا نعرف نفسه على حقيقتها حين نقرأ شعره فنجد مباهج النفس ، أو أحزانها سارية في كل كلمة من كلماته ، مطلة من كل بيت من أبياته ، وهذا ما قصدناه من أن القرآن خلا من تصوير عواطف بشرية لأنه إلهي ، وهذا ما نريد إقامة البرهان عليه .

وبسبيل من ذلك ما نجده في القرآن مما وجه للنبي ﷺ من عتب أو من توجيه ، وكان فيه ما يحرص البشر على إخفائه ، ولكن محمداً بلغه كما نزل من عند الله ، ولو كان مادة لِتَقَوُّلِ المتقولين ، وطعن الطاعنين .

من ذلك قصة زينب بنت جحش التي تزوجها زيد بن حارثة ولكنها لم تسترح للإقامة معه ، واضطرته إلى أن يفارقها ، وكان زيد يأتي إلى النبي يستشيره فيأمره بإمساكها ، وفي نفسه ﷺ أن يتزوجها إن طلقها زيد ليضع للمسلمين تشريعاً عملياً يبيح للمتبني أن يتزوج امرأة الذي تبناه ، وكان النبي قد تبنى زيداً هذا .

فقص علينا القرآن الكريم هذه القصة ، واضحة لا لبس فيها ولا غموض : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

فهل كان النبي ﷺ -وأعداؤه يتربصون به ، وينتظرون أية هفوة يأخذونها عليه- يصرح بمثل هذا لو كان هو مؤلف القرآن ؟!

ومن ذلك أيضاً ما ورد في سورة التحريم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ﴾ [التحريم : ١] ومما روى في أسباب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة

وحفصة ، وأشعرتاه بأنهما يشمان منه رائحة كريهة ، فحرم العسل على نفسه ، وقد زل بعض المفسرين فاعتبر ذلك زلة من الرسول ﷺ ، ولكن التحريم المقصود هنا ليس تحريم ما أحله الله بمعنى اعتقاد حرمته ، وإنما معناه الامتناع ، وكل إنسان له أن يمتنع عن الحلال ولا يقدح ذلك في دينه .

والله سبحانه وتعالى وجه إلى النبي ذلك الخطاب على سبيل الإشفاق عليه ، والرفق به ، والتنويه بقدره أن يشق على نفسه بتحريم شيء ابتغاء مرضاة أزواجه . ولكن ظاهر الآية يمكن أن يكون سلاحاً في يد أعدائه ، وها قد رأينا أن مفسراً من كبار المفسرين زل في فهم الآية .

وقد كان النبي ﷺ في غنى عن ذلك لو كان القرآن من عنده ، وما رأينا في القديم ولا في الحديث أديباً كبيراً أو صغيراً ذا مكانة في قومه ، وموضع احترامهم وتقديرهم كشف في أدبه عن شيء من سلوكه الشخصي الذي يمكن أن ينقص من قدره ، فكيف بالصادق الأمين ، والأعداء كثيرون ، والعيون تترصد زلة منه ، كيف به يصرح بمثل هذه المواقف ؟ إن الأحرى به لو كان هو صاحب القرآن ومنشئه أن يخفى عنهم هذه الأمور لا أن يعلن عما في نفسه ، مما لا يطلع عليه أحد سواه .

وقد روى عن عائشة – رضي الله عنها – فيما يتعلق بآية الأحزاب في قصة زينب وزيد : من زعم أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل إليه فقد أعظم على الله الفرية . ولو كتم محمد شيئاً مما أوحى إليه لكتم هذه الآية .

والنبي ﷺ لم يأت في هذا الموقف بأي شيء تنكره العقول ولا الأخلاق ، فليس حراماً ، ولا قبيحاً أن تحدث إنساناً نفسه بالرغبة في زواج امرأة إذا طلقها زوجها وبخاصة إذا كان زوجها غير متعلق بها ، بل كان يجفو عنها ، ونكاح هذه المرأة بعد تطليقها ليس بقبيح لا في العقل ولا في الشرع ، وإنما خاطب الله رسوله هذا الخطاب لأنه أجاب زيداً بما يكون في العادة أن يجيب به الناصح من يطلب نصيحته في مثل هذه الأمور ، ولما كانت نفس رسول الله ﷺ مائلةً إلى التزوج من زينب لو تم طلاقها ، فقد كان الله سبحانه يريد منه أن يصمت

عندما يكلمه زيد في شأن الطلاق ، أو أن يقول لزيد : أنت وشأنك حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته ، والله سبحانه يريد من أنبيائه أن يتساوى عندهم الظاهر والباطن ، حتى في الأمور التي قد تعرضهم لِتَقَوُّلِ المفترين الذين يأخذون الأمور بظواهرها ، ولا يتعمقون بواطنها .

٦ - والدليل الذي لا يمكن لأحد الشك فيه ، أو الجدل حوله - بعد كل هذا - هو أن القرآن أعجز العرب عن معارضته بعد أن تحداهم ، وقرع أسماعهم غير مرة بهذا التحدي ، وحكم عليهم بالعجز ، مع أنهم أرباب البلاغة والفصاحة .

فلما ثبت أن القرآن معجز ثبت أنه ليس من قول البشر ، إنما هو : ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] .

****